المبشرون الأجانب وأنشطتهم في العراق

أ.د.خالد حمود عبد الله السعد ون
كلية الآداب والعلوم- جامعة الشارقة

المقدمة:

جذبت الساحة العراقية اهتمام المبشرين الأوربيين ؛ بعدّها منطقة وسيطة مفتوحة على ما جاورها وتصلح لأن تكون قاعدة لانطلاق الأنشطة التبشيرية في المناطق القريبة ، مثل الخليج العربي كما حدث في مرحلة لاحقة . وقد تركزت أنظار المبشرين على الأراضي العراقية منذ مطلع القرن السابع عشر . فقصدها المبشرون الكاثوليك الفرنسيون من الآباء الكرمليين ، حيث حلوا في البصرة سنة ١٦٢٣ ثم في بغداد سنة ١٦٣٨ [١]. ولحقهم بعد حين الآباء الدومنيكان الفرنسيون، فمارسوا أنشطتهم في الموصل أولا" ثم في بغداد [٢] وفي القرن التاسع عشرغدت الدولة العثمانية المنطقة الأكثر جذبا لأهتمام الأوربيين من سياسيين ومضاربين ومبشرين أيضا إذ اعتبر الأخيرون أن في أراضيها مسيحيين محتاجين للترقية إلى شكل "أعلى" من المسيحية ويتمثل هؤلاء بالطوائف المسيحية الشرقية المنتشرة في طول الأراضي العثمانية وعرضها.[٣]

وقد بدأ المبشرون البروتستانت يظهرون على الساحة مستفيدين من إعلان مبدأ حرية العبادة في الدولة العثمانية بموجب (خط شريف همايون) الذي أصدره السلطان العثماني بإيحاء من حليفاته الأوربيات في حرب القرم (١٨٥٤ – ١٨٥٦) وكانت أول الإرساليات التبشيرية البروتستانتية التي حلت في الساحة العراقية إرسالية (جمعية الكنيسة التبشيرية) (TheChurch MissionarySociety) وهي بريطانية.فقد باشرت تلك الإرسالية نشاطها في بغداد سنة ١٨٨٣ [٤]وأعقبتها جمعية الكتاب المقدس البريطاني

والأجنبي (The British and Foreign Bible Society) التي اختارت العمل في بغداد والبصرة . بينما اقتصرت إرسالية رئيس أساقفة كنتربري (The Archbishop of Canterbury's Mission) أنشطتها على المنطقة الشمالية من العراق. [٥]

وانضم الأمريكان للحلبة سنة ١٨٩١ حين وصلت الى البصرة طلائع (الإرسالية العربية لكنيسة أميركا الكالفنية (The Arabian Mission of the Reformed Church of America) وتسمى هذه الإرسالية أحيانا (الإرسالية الأمريكية الهولندية الكالفنية The American Dutch Reformed) Mission) ولكن الاسم المختصر الشائع لتلك الإرسالية هو (الإرسالية العربية) وقد ركزت هذه الإرسالية نشاطها على ولاية البصرة ومنطقة الخليج العربي، حيث غدت مدينة البصرة مركزا لقيادة أنشطتها التبشيرية في البحرين ومسقط والكويت. [٦]

ولم تقصر تلك الإرساليات أنشطتها على الجهد التبشيري المباشر، بل سلكت سبلا غير مباشرة لعلها توصلها إلى قلوب الناس المستهدفين أو عقولهم . ومن تلك السبل تقديم الخدمات التعليمية والصحية. [٧]

مدارس المبشرين

أقام المبشرون من مختلف الإرساليات مدارس متنوعة في أنحاء العراق . فكان للآباء الدومنيكان في ولاية الموصل مدارس كثيرة في المدن والقرى ، فضلاً عن كلية لتخريج القس [٨] . كانت لأقرانهم الآباء الركليين عدة مدارس في بغداد ، منها مدرسة ثانوية للبنين ذات قسم داخلي . وبلغ عدد طلابها سنة ١٩٠٥ قرابة مائتي طالب . ولهم أيضاً مدرسة للبنات ، ومدرسة مختلطة للأطفال حتى سن الثامنة ، ومدرسة للتلاميذ الفقراء . [٩] أما الإرسالية العربية في البصرة فكانت محاولتها الأولى في المجال التعليمي على يدي القس جون فانيس Van Ess الذي روى إنه بعد استقراره في تلك المدينة سنة ١٩٠٣ أدرك مدى حاجة سكانها الكبيرة لمدارس تعلمهم بلغتهم . فأجتمع بوالي البصرة العثماني وفاتحه بأمر السماح للإرسالية بإنشاء مدرسة ، وجاءه رد الوالي المنهكم وهو إنه يريد تضييع وقته في تعليم الحمير [١٠] ومع ذلك قام أحد مبشري الإرسالية بفتح مدرسة صغيرة في داره سنة ١٩٠٥ [١١] دون أن يسعى للحصول على الترخيص الحكومي المطلوب . ويبدو أن السلطات

المحلية تغاضت عن ذلك الواقع في البداية ، فظلت مدرسته مفتوحة الأبواب حتى كانون الثاني – يناير ١٩٠٧ حين أصدر الوالي أمراً بإغلاقها لعدم حصولها على الإجازة الرسمية المطلوبة .[١٢] رفع مسؤول الإرسالية في البصرة القس جون فأنيس القضية إلى القنصلية الأمريكية في بغداد فنصحته بالإذعان للنظم العثمانية المتبعة والتقدم بطلب للحصول على الإجازة الرسمية للمدرسة من إدارة التعليم في الولاية . وقامت القنصلية في الوقت نفسه بالكتابة إلى والي البصرة ملتمسة إبقاء أبواب المدرسة مفتوحة لحين الحصول على الإجازة الرسمية المطلوبة. ولكن الوالي رفض الاستجابة لذلك الالتماس.[١٣] وقام القنصل الأمريكي في بغداد في الرابع من شباط – فبراير ١٩٠٧ بالكتابة للسفير الأمريكي في اسطنبول مبينا أن الإرسالية العربية في البصرة تنوي التقدم للسلطات العثمانية للحصول على إجازة فتح مدرسة مجانية تقبل صبيانا" مسلمين بين تلامذتها .[١٤] فجاءه الرد بأن الطلب يجب تقديمه رسميا للباب العالي عن طريق السفارة . ويجب أن يحتوي الطلب على تحديد الموقع الدقيق للمدرسة وأسماء مديرها ومعلميها وجنسياتهم والمقررات الدراسية المزمع أن تدرسها ، فضلا" عن اسم المؤسسة التي تشرف على المدرسة .[١٥] وفي غضون ذلك وافقت سلطات ولاية البصرة سنة ١٩٠٨على السماح للمدرسة بمزاولة عملها .[١٦]

ويبدو أن تلك الموافقة كانت على أساس الأمر الواقع . de facto وهذا ما دفع السفير الأمريكي للتعليق بقوله إن جهة أجنبية ما أو مواطنا" أجنبيا" يستطيع عن طريق علاقته الطيبة بالسلطات المحلية الحصول على موافقة ضمنية أو سكوت على فتح مدرسة . فيغدو لها وجود واقعي يمكنها من ممارسة أعمالها دون مضايقة . وذلك سبيل ملائم وعملي لمدرسة ذات طبيعة مؤقتة صرفة . ولكن مدرسة مثل هذه حين تواجه مشكلة ما فإن سفارتها لن تكون قادرة على مد يد العون لها ، لأن السلطات العثمانية لا تعتبرها ذات وجود قانوني معترف به لعدم افتتاحها طبقا للأنظمة المقررة . وأضاف السفير قوله إن السبيل الآخر أمام الأجنبي الراغب في فتح مدرسة في الأراضي العثمانية هو الانتفاع من اتفاقية مايتلين Mytileneالمعقودة بين الدوله العثمانيه وفرنسا والتي انسحبت أحكامها فيما بعد على الرعايا الأجانب غير الفرنسيين . وقد نصت تلك الاتفاقية بشأن المدارس على ما يأتي : " عندما تقام في المستقبل مؤسسات تعليميه أو دينيه أو ما شابه ذلك من قبل رعايا فرنسيين أو خاضعين للحماية الفرنسية في أماكن لا يقتصر السكن فيها على المسلمين حصرياً فإن السفارة الفرنسية ستنقل إلى وزارة الخارجية الإمبراطورية فضلا عن التفاصيل النظامية

أسماء المعلمين والمديرين وهدف التأسيس ... ."ومضى السفير للقول إن طلب فتح المدرسة يجب أن يتضمن اسم الحي والشارع الذي ستفتتح فيه لأن من حق الحكومة العثمانية رفض الموافقة إذا كان المكان المحدد يقطنه مسلمون فقط . ولذلك طلب السفير من فانيس استكمال كافة المعلومات المطلوبة وإرسالها للسفارة حتى يتسنى لها تقديم الطلب إلى الباب العالي [١٧] .ولم تكن استجابة الباب العالي لذلك الطلب سريعة ، بل تأخرت حتى سنة ١٩٠٩ حين صدر فرمان سلطاني يجيز للإرسالية العربية فتح مدرسة للبنين في البصرة ، لغة التعليم فيها هي العربية ، فضلاً عن تدريس اللغتين التركية والإنجليزية. [١٨] وسعت الإرسالية بعد ذلك لتشييد مبنى خاص لمدرستها التي أسمتها (الرجاء العالي (High Hope)) قد وضع حجر الأساس للمبنى والي البصرة سليمان نظيف بك في آذار - مارس ١٩١٠ [١٩] ونجح المبشرون الأمريكان في افتتاح مدرسة (الرجاء العالي للبنات) في البصرة سنة ١٩١٢ [٢٠] وكان من مشاريعهم هناك أيضا" فتح كلية للزراعة [٢١] ولكن لم يقدر لذلك المشروع أن يرى النور .

وكان لإرسالية (جمعية الكنيسة التبشيرية) مدرسة في بغداد. [٢٢] ومدرستان في الموصل، احداهما للبنات والأخرى للبنين . وقد اهتم القنصل العام البريطاني عند زيارته لولاية الموصل في نيسان – أبريل ١٩١٠ بأمر تينك المدرستين . فكتب قائلا" إن أولاهما كانت رائعة من كل وجه ، وهي تدار بكفاءة عالية من قبل الآنسة مارتن Martin مسؤولة الإرسالية . بينما كانت مدرسة البنين تدار من قبل معلم محلي ، فتضاءلت فاعليتها بدرجة كبيرة جدا" . وختم القنصل العام كتابته باقتراح قيام الجمعية في بريطانيا بتعزيز إرساليتها في الموصل ، أو نقل مسؤوليتها إلى هيئة أخرى أقدر على تفعيل أنشطتها. [٢٣]

وكانت إرسالية رئيس أساقفة كنتربري حريصة على القيام بنشاط تعليمي في ولاية الموصل أيضا" . فقدمت طلبا" للباب العالي في تشرين ثان – نوفمبر ١٩١١ للسماح لها ببناء مدرسة في (بابيبدي Bibaydi) بالقرب من بلدة العمادية . وقد تحمس والي الموصل للفكرة فاقترح على الإرسالية المباشرة الفورية بعملية البناء على مسوليته الخاصة لحين وصول فرمان الموافق ولكن مسؤولي الإرسالية فضلوا التريث لحين استلام الفرمان فعلا" . [٢٤] ولم يتأخر صدور ذلك الفرمان بالفعل . فقد أبرق السفير البريطاني في إسطنبول لنائب القنصل البريطاني في الموصل في كانون أول – ديسمبر ١٩١١ يخبره إن الباب العالي وافق على قيام تلك الإرسالية بإنشاء مبان لمدرسة وكنيسة ومرافق أخرى . فبادرت

الإرسالية بالبناء فور تلقيها ذلك الإشعار. [٢٥] وكانت تلك المدرسة مكرسة لأبناء المسيحيين النساطرة الذين كان البريطانيون معنيين برعايتهم . ولكنها مع ذلك لم تجد إقبالاً منهم حسبما لاحظ نائب القنصل البريطاني في الموصل بعد حين . فقد كتب في آذار – مارس ١٩١٣ قائلاً" إن عدد تلاميذ تلك المدرسة ثلاثة عشر تلميذاً فقط . وأشار إلى احتمال توصل الإرسالية لقناعة بعدم جدوى الاستمرار في جهودها بين النساطرة التي لم تثمر عن شيء . وعلل ذلك بأن النساطرة لا يريدون من البريطانيين تعليما بل حماية ونقودا". [٢٦]

وفي مجال متصل بالتعليم كانت الإرساليات التبشيرية تعنى بفتح مكتبات في بعض المدن العراقية بهدف تسويق الكتب ، خاصة ما يتعلق منها بالدين المسيحي . فقد كان لإرسالية جمعية الكنيسة التبشيرية مكتبة في بغداد تبيع الكتب الصادرة باللغتين الإنجليزية والعربية . وكانت مكتبة الإرسالية الكرملية في بغداد تبيع الكتب الفرنسية بصورة رئيسة . بينما كانت مكتبة جمعية الكتاب المقدس البريطاني والأجنبي تبيع الأناجيل والكتب الدينية [٢٧] وكان للآباء الدومنيكان في الموصل مطبعة حجرية تجارية. [٢٨] أما الإرسالية العربية فقد افتتحت مكتبة الكتاب المقدس في مدينة البصرة سنة ١٨٩١ ، ثم فتحت فرعين لها في مدينتي الناصرية والعمارة سنة ١٨٩٧. [٢٩]

خدمات المبشرين الطبية

وجد المبشرون الأجانب الساحة العراقية خالية تقريبا" من الخدمات الطبية الحديثة فاستثمروا ذلك الواقع لسد بعض النقص ، مستهدفين اتخاذ ما يقدمون من خدمات طبية وسيلة للاحتكاك بسكان المنطقة عن قرب وكسب قلوبهم . ولذلك أصبح لكل إرسالية تبشيرية عاملة في العراق حينئذ نشاط صحي ما . فقد كان للآباء الكرمليين في بغداد صيدلية لفقراء المرضى يداوم فيها طبيب ثلاث ساعات يوميا لفحص المرضى وصرف العلاج المجاني لهم. [٣٠] وكان لهم أيضا" مستشفيات في الموصل ، وإن كانت غير منتظمة العمل ، بل تفتح وتغلق حسب الفصول . وكذلك كان لأقرانهم الآباء الدومنيكان مستوصفاتهم هناك. [٣١] وكان لإرسالية رئيس أساقفة كنتربري مستشفى في بابيدي . وعزمت سنة ١٩١١ على فتح مستوصف صغير في بلدة العمادية يقدم خدماته لسكانها المسلمين . وقد امتدح نائب القنصل البريطاني في الموصل ذلك العزم لأنه سيؤدي إلى تعزيز نفوذ الإنجليز ويوسع شعبيتهم في المنطقة. [٣٢]

أما إرسالية جمعية الكنيسة التبشيرية فقد افتتحت مستشفاها في بغداد منذ سنة ١٨٨٢[٣٣] وكانت طاقته الاستيعابية سنة ١٩٠٤ تبلغ سبعة عشر سريراً ، فضلاً عن أكثر من ألف مريض يعالجون خارجيا" . وكان المستشفى يقدم العلاج مجاناً لغير القادرين مادياً . [٣٤] وقد فكرت إدارة الإرسالية سنة ١٩١٠ بإنشاء مبنى خاص لمستشفاها ذاك على قطعة أرض تقع خارج الباب الجنوبي لبغداد[٣٥] . وحين تقدمت الإرسالية بطلب الحصول على رخصة البناء الرسمية اشترطت السلطات العثمانية عليها دفع ضرائب على الأرض والمباني التي ستقام عليها فضلاً عن الرسوم الجمركية على أية مواد تستورد لغرض البناء . فرضخت إدارة الإرسالية لذلك الشرط [٣٦] على ذلك الاتفاق أصدر الباب العالي في حزيران – يونيو ١٩١٢ فرمان رخصة البناء . ولم تعترف السفارة البريطانية في إسطنبول بكون ذلك الاتفاق بين الإرسالية والسلطات الحكومية سابقة تؤثر على امتيازات المؤسسات الخيرية البريطانية العاملة في الدولة العثمانية [٣٧] الرغم من حيازة تلك الإرسالية لفرمان الرخصة إلا أن وضع حجر الأساس لمبنى المستشفى تأخر حتى شهر آب – أغسطس ١٩١٣ . [٣٨]

وكان لإرسالية جمعية الكنيسة التبشيرية مستشفى آخر في مدينة الموصل ولكنه أغلق أبوابه سنة ١٩١٠ لعدم وجود طبيب يعمل فيه [٣٩] لم يثبط ذلك الواقع تطلع إدارة الإرسالية نحو إنشاء مبنى خاص لذلك المستشفى فاشترت في تلك السنة نفسها قطعة أرض واقعة خارج البلدة لذلك الغرض [٤٠] ظلت الإدارة تسعى لإعادة فتح أبواب المستشفى بتوفير الطبيب اللازم لعمله . ولم توفق في مسعاها حتى آذار – مارس ١٩١٢ حين وصل الدكتور ستانلي Stanley إلى الموصل وأعاد فتح أبواب المستشفى. [٤١] ومن الجدير بالذكر إن جمعية الكنيسة التبشيرية قررت في آب – أغسطس ١٩١٣ إعادة تنظيم عملها في المشرق العربي . وبموجب التنظيم الجديد دمجت الجمعية عملها في العراق وفلسطين في شعبة إقليمية واحدة بحيث يغدو من الممكن نقل أي عامل من أحد القطرين للعمل في القطر الآخر . وقد رحب القنصل العام البريطاني في بغداد بتلك الخطوة لأنها ستؤدي إلى بث حيوية أكثر في أنشطة الجمعية وخاصة في الميدان الطبي الذي كان قد غدا أوفر نشاطا على حد ملاحظته. [٤٢]

أما الإرسالية العربية فقد بدأت خدماتها الطبية في مدينة البصرة سنة ١٨٩٢ حيث كان استقبال المرضى وعلاجهم يتم في إحدى غرف سكن المبشرين [٤٣] وقد تطورت تلك الخدمات لاحقا" وغدا" للإرسالية في سنة ١٩٠٥ مستشفى صغير يقدم خدماته للجمهور في

منزل مستأجر. [٤٤] وحين تبرع أحد مناصري الإرسالية الأمريكان بمبلغ ستة آلاف دولار لغرض بناء مستشفى في البصرة [٤٥] ، تقدمت إدارة الإرسالية للسلطات العثمانية بطلب منحها الرخصة اللازمة للبناء والتمست في كانون ثان – يناير ١٩٠٩ من القنصل الأمريكي في بغداد دعم طلبها ذاك. [٤٦] ومع ذلك استغرق الحصول على تلك الموافقة زمنا" طويلا" ، فلم يوضع حجر الأساس للمستشفى إلا في آذار – مارس ١٩١٠ باحتفال كبير رعاه والي البصرة سليمان نظيف بك. [٤٧] وأنجز البناء وفتح المستشفى الجديد أبوابه سنة ١٩١١. [٤٨]

خدمات المبشرين لمصالح دولهم

كان المبشرون يقدمون لحكوماتهم خدمات عديدة ، فأي نشاط خدمي يقدمه المبشرون للسكان المحليين كان يعلي من شأن دولهم في نفوس الناس المحليين ويزيد من نفوذها بينهم كما لاحظ نائب القنصل البريطاني في الموصل في تشرين ثان – نوفمبر ١٩١١ . فضلا" عن تلك الخدمة غير المباشرة كان مسؤلو بعض الإرساليات يعملون بشكل مباشر لدعم نفوذ دولهم السياسي في المنطقة التي يزاولون أنشطتهم في ربوعها . ومن أمثلة ذلك تحرك الدكتور ويغرام Wigram مسئول إرسالية رئيس أساقفة كنتربري في العمادية في تشرين ثان – نوفمبر ١٩١١ للحد من آثار المفاتحات الروسية مع مار شمعون زعيم النساطرة . [٤٩] وحين أخذ هؤلاء يهددون صراحة بقبول الحماية الروسية إن لم يقدم لهم البريطانيون عونا" فعالا" فاتح الدكتور ويغرام في تشرين أول – أكتوبر ١٩١٢ السفير البريطاني في إسطنبول بضرورة السعي لدى الباب العالي لتلبية مطالب النساطرة. [٥٠] كذلك طرح مسؤول تلك الإرسالية نفسه حاميا للقروبين المسيحيين في المنطقة حين دب الذعر في نفوسهم في تشرين أول – أكتوبر ١٩١٣ من جراء غارات الأكراد المتمردين على الحكومة . فعبر لسلطات الولاية عن قلقه وحثها على التحرك من أجل السيطرة على الموقف. [٥١]

ووجد المبشرون أنفسهم متورطين في سياسات بلدانهم عن طريق تقديم تقارير مفصلة لحكوماتهم عن الأوضاع السياسية والاجتماعية وغيرها في المناطق التي يعملون فيها . [٥٢]

ولعل دافعهم لذاك قناعتهم بأن نشر المسيحية والاستعمار أمران مترابطان ، إذ افترضوا إن الحضارة الغربيه والمسيحيه وجهان لهديه واحده كلفتهم السماء بتقديمها لبقيه البشريه . [٥٣] وهناك العديد من الوثائق التي تؤكد قيام الإرساليه العربيه مثلا بتقديم

المعلومات عن المنطقه للسلطات الرسميه الأمريكيه . فقد كتب القنصل الأمريكي في بغداد في شباط – فبراير ١٩٠٨ إلى القس جون فانيس مسؤول الإرساليه في البصره يطلب منه موافاته بتقرير عن الأحوال في شبه الجزيرة العربية وخاصة نجد . [٥٤] وحين اضطربت الأوضاع في نهر دجله في ربيع وصيف ١٩٠٨ كان القس نفسه يراقب الموقف ويوافي القنصل الأمريكي في بغداد بما يصل إليه من معلومات عنه . [٥٥]

وقد طلب السفير الأمريكي في إسطنبول جون ليشمن John Leishman في تموز – يوليو ١٩٠٨ من فانيس الكتابه له عن الوضع في البصرة . [٥٦] فكتب تقريرا في الشهر التالي عن الوضع في نهر الفرات وتحركات بعض السفن البريطانيه في الخليج واضطرابات القبائل في القطيف . [٥٧] وكان فانيس يعتمد في استقاء معلوماته على مخبرين من السكان المحليين. [٥٨] والغريب أن طلب المعلومات بين الجهات الرسميه الأمريكيه ومسؤول الإرساليه العربيه لم يكن يتم بصورة مكتومه . فقد أبرق القنصل الأمريكي في بغداد مثلا لفانيس في آذار – مارس عبر البرق الحكومي العثماني طالبا منه أن يوافيه بتقرير عن الاضطرابات العشائريه التي حدثت في لواء المنتفق. [٥٩]

موقف السلطات العثمانية من المبشرين

كانت السلطات العثمانيه تخشى آثار النشاط التبشيري ولكن لم يكن بمقدورها اتخاذ إجراء قوي ضده لئلا يجرها ذلك للاحتكاك مع دول المبشرين . [٦٠] ولكنها مع ذلك لم تعدم بعض الوسائل المتاحه التي تمكنها من عرقله أعمالهم بشكل أو بآخر . ومن ذلك إنها كانت لا تشجع التلاميذ المسلمين على الالتحاق بالمدارس التبشيريه ، وتمنعهم عن ذلك بصورة صريحه أحيانا. [٦١] كما كانت تتابع عمل المؤسسات التبشيريه وتحاول إلزامها بالتقيد بالنظم العثمانيه المقرره . فحين علمت سلطات ولايه البصره إن الإرساليه العربيه تستخدم في مستشفاها صيدليا لا يحمل مؤهلا علميا قانونيا ألزمتها بالاستغناء عن خدماته . [٦٢] وكانت أجهزه الرقابه الحكوميه تدقق في المطبوعات الوارده للإرساليات التبشيريه من الخارج ، وتعرقل دخولها مما يثير استياء مسؤوليها من الموظفين العثمانيين المختصين . [٦٣]

ويبدو أن المشاعر الدينيه والوطنيه كانت تدفع بعض الموظفين الحكوميين العثمانيين لاتخاذ مواقف متشدده ضد الإرساليات . ومن ذلك أن قائم مقام العماديه وقف بعناد أمام

محاوله إرساليه رئيس أساقفه كنتربري تشييد مبانيها في بابيدي قبل حصولها على الموافقه الرسميه من الباب العالي . ولذلك حين صدر فرمان الموافقه في كانون أول – ديسمبر ١٩١١ أرسله والي الموصل المتحمس لعمل الإرساليه إلى القائمقام مع أوامر مشددة بعدم وضع عقبات أمام أعمال البناء . ولم يكتف الوالي بذلك بل أوفد مفتشا إلى العماديه لتدقيق أعمال القائمقام لعله يجد فيها مسوغا لطرده من عمله. (٦٤) كما قرئ فرمان الموافقه علنا في اجتماع رسمي عقد في العماديه لبيان أن أيه عقبه توضع أمام أعمال البناء ستكون معارضه لإراده الباب العالي . (٦٥)

وكان مسؤولون عثمانيون آخرون يحاولون القيام بمبادرات شخصيه تهدف لمناقسه الإرساليات التبشيريه في أنشطتها . فحين شاهد والي البصره محرم بك نجاح الخدمات الطبيه التي تقدمها الإرسالية العربية في استقطاب اهتمام السكان المحليين دعا أثرياء المدينة للاجتماع في كانون ثان- يناير ١٩٠٩ . وعرض عليهم أثناءه تقريراً لطبيب البلدية يظهر الحاجة الماسة لبناء مستشفى في العشار بكلفة تقدر بأربعة آلاف ليرة عثمانية . وطالب الوالي المجتمعين بالتبرع بذلك المبلغ ، فاستجابوا لطلبه ووعدوه وعداً جازماً بتغطية كامل الكلفة المقدرة . وبناء على ذلك أبرق الوالي لإسطنبول طالباً الموافقة على البدء ببناء المستشفى الذي جمعت كلفته بالفعل . ولكنه فوجئ في اجتماع تال عقده للمتبرعين بعد يومين بأن إجمالي ما قدموه من تبرعات لم يزد عن خمسمائة ليرة فقط . وقيل إن الوالي لشعوره بالصدمة وتعرضه للإحراج أمام مراجعه العليا أقدم على رفع استقالته من منصبه . (٦٦)

وإذا كانت المواقف الرسمية تجاه أنشطة الإرساليات التبشيرية تجري بذلك الشكل فإن مواقف عامة السكان اتخذت منحى مغايرا . فعلى الرغم من امتعاض بعض السكان من مساعي المبشرين لنشر المسيحية عن طريق الوعظ المباشر وخاصة في أول عهدهم بالعمل في المنطقة ، إلا أن تقديرهم العام لخدمات المبشرين الصحية والتعليمية كان يتزايد سنة بعد أخرى . ولعل ذلك التقدير هو الذين يفسر خلو الوثائق المتاحة من ذكر أية حادثة عنف تعرض لها المبشرون العاملون في العراق خلال سني الدراسة والحادثة الوحيدة التي يمكن إيرادها في هذا الصدد لم تنصب على المبشرين أنفسهم . وتتمثل تلك الحادثة بهجوم تعرض له تلامذة مدرسة إرسالية رئيس أساقفة كنتربري في بابيدي في كانون أول – ديسمبر١٩١٣ وأسفر عن قتل إثنين منهم . وقد تحركت سلطات ولاية الموصل بسرعة

وبقوة إثر الحادث فاعتقلت ستة من المشتبه بهم ، وعاقبت قائم مقام العمادية بنقله من منصبه لعدم تعامله بحزم مع المشتبهين . [٦٧]

الخاتمة

أظهر الاستعراض السابق حرص العديد من الإرساليات التبشيرية الأوربية والأمريكية على العمل في الساحة العراقية خلال سني الدراسة . وقد أخفق أولئك المبشرون في تحقيق غايتهم الرئيسة وهي نشر عقيدتهم الدينية بين سكان المناطق العراقية التي نشطوا بين ربوعها . وتعود أسباب ذلك الإخفاق إلى حقيقة أن الإسلام نظام حياة متكامل يضبط كافة مفردات حياة معتنقيه اليومية بحيث لا يمكن أن تنتظم دونه . وهو بذلك ليس مجرد طقوس تعبدية سطحية يسهل إقناع مؤديها بالكف عنها واستبدالها بأخرى . وقابل ذلك الإخفاق نجاح كبير في كسب تقدير السكان لخدمات المبشرين الصحية والتعليمية ، على الرغم من العثرات التي اعترضت طريق تلك الخدمات في البداية ، وتمثلت في المعارضة الشعبية التي وصلت حد التلويح باستخدام القوة ضد من يقبلون على تلقي تلك الخدمات .[٦٨] ولم يفت ذلك الواقع عن ملاحظة مسؤول بريطاني معاصر ، فكتب قائلا:- " إن مسلمين كثاراً يقدرون أعمال الجمعيات التبشيرية في التعليم والتطبيب ، ولكنهم يصمون آذانهم عن دعوتها الدينية " [٦٩] واتضحت من ذلك الاستعراض أيضا حقيقة خدمة المبشرين لمصالح دولهم عرضاً حيناً وبشكل متقصد أحياناً .

ملحق رقم (١)

عريضة أعيان البصرة للوالي في مطلع ١٩٠٩ حول السماح للإرسالية العربية ببناء مستشفى في المدينة . *

للحضور السامي حضرت والي ولاية البصرة ((من المسلم لدى عموم ارباب العقل والبصيره إن صيانة افعال الوجود الطبيعية من العوارض الخارجيه ووجود حفظ وقايه كافة أعتاد الوجود الحيوية واستقرار واعتدال الصحة هي كافلة لدوام سلامة صحة البدن ومحافظة المادة الحيوية الثمينة المستلزمة الاعتنا . بناء على هذا دعتنا هيئة الاجتماعيه البشرية لخدمة الإنسانية . وليس من الممكن انكار ما لأطباء جمعية أمريكا الخيرية من الأيادي البيضاء منذ

ستة عشر سنة ونيف . قايم انه قد نور بصائر ابنهاجا" اقداماتهم وهممهم . فمنهم الآن الطبيب الغيور الحاذق الموسيو ارثور كينغ بينت لم يزل ساعيا" باجراً المعالجات واستحصال الشفا بإذن المولى لأصحاب الأمراض والعاهات . وهذا الطبيب قد دخل لدار الفنون في أمريقا المسمى (ميشيغن) فاخذ ورقة الشهادة وسافر إلى مملكة [لبوربول ليفربول] التابعة لدولة انكلترا وهناك أكمل العمليات ووسع مكتسباته الطبية في دار الفنون الطبي العالي المخصص لتدريس أمراض الممالك الحارة وأخذ أيضا" ورقة الشهادة ورجع لوطنه أمريقا فاستحصل الشهادة من الهيئة الطبية فيها . ثم سافر لدار السعادة [إسطنبول] مستصحباً شهاداته فأدى الامتحان التام . ونال المأذونية بخصوص إجراً الصنعة في الممالك المحروسة الشاهانية مع رخصة التطبيب المرقمة (نمرو ٢٥٨٩) في ٢١ حزيران سنة ٣٢٠ وفيها التصديق جرى بالتدقيق الشامل لفني التشريح والقبالة . وأما هذا الطبيب الفاضل لم يزل يبذل النفس النفيس بتداوي المرضاء وفق المطلوب . ولذلك قسم الأعظم من المرضا هم منكبين عليه منتفعين من حذاقته ومهارته وحسبما اتصف به المومى إليه من الأخلاق الحسنة والغيرة والحمية قد فرغ مكان مخصوص يستوعب كم شخصا من محل اقامته لمعالجة المرضا اللذين ينبغي أن يكونوا دايما تحت نظارته المتمادية .

وأما الأفراد اللذين يبقون خارج هذا المكان لعدم استيعابه فمن الضروري ابقائهم في بيوتهم أو الخانات أو القهاوي بعيدين عن النظارة الطبية . ولا شك أن الطبيب المومى إليه يسارع لإنقاذهم مما ابتلوا به من الامراض . وتكثر في أصل النص أعلاه الأخطاء الإملائية واللغوية والأسلوبية ولكن هو مجبور على صرف أكثرهم ولذلك الأدوية المصروفة لهولاء المرضا لم تجري تأثيرها اللازم . وأما ما يبذله الدوقتور بخصوص اصناف المأمورين المختلفة وأهالي الوطن بلا تفريق صنفه وجنسيه وما يعرفه من المهارة في تشريح الجروح المزمنة واجراً عملياتها بكمال السرعة ووفرة المقدرة فهي ولا غرو جالبة لتحسين العموم . فالمومى اليه مستعد من الكشفيات والاختراعات الناتجة من التحليلات والتدقيقات الكميوية التي وضعها نصب اعين التقدير والتبجيل متخصصوا عالم الطب الحاضر التي اهدوها لعالم المدنية ولعدم وسعة المحل تعسر امكان تنويم قسم الاعظم من المحتاجين للنظارة الطبية وبالطبع لم تنجح المداوات بل تستلزم معاذ الله سئو التاثير . ولذلك ان المومى اليه قصد قصداً خالصاً مبنياً على سلامة القلب لتحضير محلاًمناسباً لجسامة المملكة . ولأجل حصول ما هو ساع به من التشبثات قد استحسنوا عموم اصحاب المراجعة هذا الفكر المصيب وهو

واياهم منتظرين مساعدة الحكومة . واما هذه الخدمة فهي مستلزمة بدون ماكن في قلب في قلب [كذا] الطبيب من خدمة الانسانية وصنوف افراد البشرية ولا شك هي خدمة موجبة للتقريظ والثنا فنسترحم من اللذين في يدهم ازمة الامر ان يسمحوا بجرا المساعدة لتدارك وانشأ محل موافقاً مخصوص للمرضا ... [كلام ساقط في الأصل] الصحة مخصوصاً لمرضا كما يريد الدوقتور المرمى إليه الراجع للجمعية الخيرية الامريكيانيه والمصدقة مهارته التشريحية والفنية لدن هيئة صحية الدولة العلية العثمانية ولذلك قدمنا هذه المضبطة لموقع الإيجاب العالي والأمر لمن له الأمر . ملحق رقم (٢).

عموم اعيان البصرة

رسالة أعيان البصرة لطبيب الإرسالية العربية بنيت في مطلع سنة ١٩٠٩**

جناب طبيب وجراح الجمعيه الخيريه الأمريكانيه المستر ارثور كينك بهنئ المحترم نعرض لحضرتكم من همت الجمعيه الخيريه التي هذه سته عشر سنه فاتحت محل للتداوي بالبصرة وخصوصا منذ تشريف جنابكم للبصره والى يومنا هذا بموجب ما بيدكم أي الدبلومات المصدقة من الهيئه الصحيه العثمانيه بالقسطنطينيه المؤرخه في ٢١ حزيران سنة ٣٢٤ نمره ٢٥٨٩ بالخصوص الشهادتنامات التي بيدكم من مدارس أمريقا وانكلترا التي تهم مندرجة طبابتكم وعملياتكم الجراحية وعلمكم فن القابله بالحقيقه شاهدنا حذاقتكم فيها . فبلسان العموم جميعا يمدحونكم بجدكم واجتهادكم . والحاله هذه بما اننا قد عرفنا عن عدم وسعة محلكم ولزوم كثر العمليات الجراحية عليكم وثم الآن نرى أكثر اللذين يراجعونكم لأجل العمليات الجراحيه حضرتكم تبينون لهم المعذوريه من عدم وسعة محلكم وبما انكم لا تفرقون بين اصناف البشر خلافا كانوا مأجورين أو اغنيا أو فقرا وايجاب محافظة صحة العموم يعرف بخدمة جمعيتكم الخيريه لجميع البشر . بناء عليه نرجو منكم ان توسعوا محل التطبيب لكون جميع العناصر المختلفه بالعصر الحاضر هي لأجل الاستفاده من العلم الطبي الجديد . الراجح لتحسن عافية وصحة الجميع . فالان نلتمس منكم ... [كلمة ساقطة في الأصل] نتوسط لتوسيع المحل راجين بان تساعدونا لاستحصال الامر ولكم الفضل افندم ولاجله قدمنا هذه المضبطه.

الهوامش :

(١) لوريمـــر ، ج. ج. دليل الخليج ، القسم التاريخي ، ترجمة ونشر ديوان حاكم قطر ، الدوحة : د. ت، ج ٦ ، ص ٣٤٢٠ – ٣٤٢١.

(٢) لونغريك ، س هـــ . ، العراق الحديث من سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩٥٠ ، ترجمة سليم

التكريتي ، بغداد : الفجر للنشر والتوزيع ،١٩٨٨ج ١ ، ٢٤.

٣-Salt , Jeremy , Imperialism , Evangelism and the Ottoman Armenians ١٨٧٨ – ١٨٩٦ ,(London : Frank Cass , ١٩٩٣) , pp. ١٣- ٤ .

٤- http://www.adam-matthew-publications.co.uk/

(٥) لوريمر ، المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ٣٤٤٣– ٣٤٤٤ .

٦-www.mecchurch.org/newsreport/vol.١٠

(٧) مصطفى خالدي وعمر فروخ ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، صيدا : المكتبة العصرية ، ١٩٩٥ ص ٥٩-٦٦

(٨) لونغريك ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٤ .

(٩) لوريمر ، المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ٣٤٣٢ – ٣٤٣٤ .

(١٠) فانيس ، جون ، أقدم أصدقائي العرب ، ترجمة جليل عمسو ، بغداد ،١٩٤٩ ، ص ٣٣٩.

(١١) إبراهيم خليل أحمد ، تطور التعليم الوطني في العراق ١٨٦٩ – ١٩٣٢ (البصرة : ١٩٨٢)، ص ٥٥ وهو يسمي القس المذكور برنغ Brung بينما اسمه بارني Barny لدى عبد المالك خلف التميمي ، التبشير في منطقة الخليج العربي ، (العين : مركز زايد للتراث والتاريخ ، ٢٠٠٠)، ص ١٦٥ .

(١٢) NARA , RG ٨٤ , Magelssen , Bag. , to Am. Amb. , Const . , dated ٢٣, ١٩٠٧

(١٣)Ibid

(١٤)NARA , RG ٨٤ , No. ٣٠٢ , Am. Con. , Bag. , to Rev. John Van Es Bas.,dated٧,٢١٩٠٨. .

(١٥) NARA , RG ٨٤ , No. ٣٥٣ , Am. Con. , Bag. , to Rev.

(١٦)التميمي المصدر نفسه ، ص ١٦٥.

(١٧)NARA , RG ٨٤ , J. Leishman , Const. , to Rev. John Van Ess , Bas. , dated ٢٤,٧,١٩٠٨

(١٨) فانيس ، المصدر نفسه ، ص ٣٣٩ .

(١٩)NARA , RG ٨٤ , No. ١٩ , Am. Con. , Bag. , to Am. Amb. , Const. , dated ٢٩,٣,١٩١٠

(٢٠) أحمد ، المصدر نفسه ، ص ٥٥ .

(٢١) NARA , RG ٨٤ , No. ١٤, Am. Con. , Bag. , to Am. Amb. , Const. , dated ٣,٣,١٩١٠

(٢٢)NARA , RG ٨٤ , No. M.C. ١٤٣ , Am. Con. , Bag. , to C. Ward , Chicago , dated١١,٤,١٩١٢ .

(٢٣)IOR , L/P&S/١٠/١٨٨ , Summary of events in Turkish Iraq during the months of April and May ١٩١٠

(٢٤) IOR , L/P&S/١٠/٢١٢ , Summary of events in Turkish Iraq for the month of November١٩١١

(٢٥)of IOR , L/P&S/١٠/٢١٢ , Summary of events in Turkish Iraq for the month December١٩١١ .

(٢٦)IOR , L/P&S/١٠/٢١٢ , Summary of events in Turkish Iraq for the month of April ١٩١٣ .

(٢٧)NARA,RG٨٤,No.M.C.١٤٣...١١,٤,١٩١٢

(٢٨) لونغريك ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٤ .

(٢٩) التميمي ، المصدر نفسه ، ص ٢١١ .

(٣٠) لوريمر ، المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ٣٤٣٥ .

(٣١) لونغريك ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٤ و ص ٩٧ .

(٣٢) IOR,L/P&S/١٠/٢١٢,Sum....Nov.١٩١١

(٣٣) لونغريك ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٢ .

(٣٤) لوريمر ، المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ٣٤٤٤ .

(٣٥) IOR,L/P&S/١٠/١٨٨,Summaryof events in Turkish Iraq during the month of June١٩١٠.

(٣٦)IOR , L/P&S/١٠/٢١٢ , Summary of events in Turkish Iraq for the months of March and April ١٩١٢ .

(٣٧)IOR , L/P&S/١٠/٢١٢ , Summary of events in Turkish Iraq during June

(٣٨)&S/١٠/٢١٢ , Summary of events in Turkish Iraq during August ، ١٩١٢ .

(٣٩) IOR,L/P&S/١٠/١٨٨ , Sum. ... Apr. & May ١٩١٠

(٤٠)IOR,L/P&S/١٠/١٨٨,Sum....June١٩١٠

(٤١)IOR,L/P&S/١٠/٢١٢,Sum....Mar.&Apr.١٩١٢.

(٤٢) IOR , L/P&S/١٠/٢١٢ , Sum. ... Aug. ١٩١٣ .

(٤٣) التميمي ، المصدر نفسه ، ص ٨٠ وص ٩١ .

(٤٤) لوريمر ، المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ٣٤٤٢ .

(٤٥) التميمي ، المصدر نفسه ، ص ٤٩ .

(٤٦) NARA , RG ٨٤ , A. Bennet , Bas. , to W. Magelssen Bag. , dated ٢٤,١ ١٩٠٩ .

(٤٧) NARA ,RG ٨٤,No.٣١٧,Act. Am.Con.Agent, Bas. , to Am. Con. , Bag.,dated ٥,٣,١٩١٠.

(٤٨)التميمي ، المصدر نفسه ، ص ٦٤ .

(٤٩)IOR,L/P&S/١٠/٢١٢,Sum....Nov.١٩١١

(٥٠) IOR , L/P&S/١٠/٢١٢ , Summary of events in Turkish Iraq for October ١٩١٢ .
(٥١)L/P&S/١٠/٢١٢ , Summary of events in Turkish Iraq during October ١٩١٣ .

(٥٢) التميمي ، المصدر نفسه ، ص ٢٤٧ .

(٥٣)lt,op.cit.,p.١٣.

(٥٤)NARA ,RG٨٤ , No. ٣٠٢ , Am. Con . , Bag. , to Rev. John Van Ess , Bas.dated٧,٢,١٩٠٨

(٥٥) NARA , RG ٨٤ , John Van Ess .,Rev., to Mr. Magelssen , dated ٢٦,٦,١٩٠٨
(٥٦) NARA , RG ٨٤ , J. Leishman , Const. , to Rev. John Van Ess, Bas. , dated ٢٤,٧ . ١٩٠٨ .
(٥٧)NARA , RG ٨٤ , John Van Ess , Bas. , to W. Magelssen , Bag. , dated ٢٨. ٨. ١٩٠٨ .

(٥٨)NARA , RG ٨٤ , John Van Ess, Bas. , to W. Magelssen , dated ١٢. ١٠ . ١٩٠٨ .
(٥٩)NARA,RG ٨٤ , Simpich , Bag. , to Van Ess , Bas. , dated٢٩ .٣,١٩١٠
(٦٠) التميمي ، المصدر نفسه ، ص ٢٥١ .

(٦١)NARA , RG ٨٤ , J. Leishman , Const. , to Rev. John Van Ess , Bas.,dated٢٤,٧,١٩٠٨
(٦٢)NARA ,RG ٨٤ , No. ٣٤٤ , Am. Con. Ag. , Bas. , to J. S. Levack , Bag. , dated ١٠,١٢, ١٩١٠

(٦٣)NARA , RG ٨٤ , No. ٦٧ , Am. Con. , Bag. , to E. Ozmun , Const. , dated ٢٦ . ٨. ١٩٠٨ .

(٦٤)IOR L/P&S/١٠/٢١٢,Sum....Dec.١٩١١

(٦٥)IOR , L/P&S/١٠/٢١٢ , Summary of Turkish Iraq for the month of February ١٩١٢

(٦٦)NARA , RG ٨٤ , No. ٣٢ , Am. Con. , Bag. , to Am. Amb. , Const. , dated ٩. ١. ١٩٠٩ .

(٦٧) IOR , L/P&S/١٠/٢١٢ , Summary of events in Turkish Iraq during November & December١٩١٣and January ١٩١٤

(٦٨) خالد البسام (معد ومترجم) ، صدمة الاحتكاك : حكايات الإرساليات الأمريكية في الخليج والجزيرة العربية ١٨٩٢ – ١٩٢٥ ، (بيروت : دار الساقي ، ١٩٩٨ ، (ص ٦٥).

(٦٩)خالدي وفروخ ، المصدر نفسه ، ص ٥٠ .

* NARA , RG ٨٤ , Arttur K. Bennet , Busrah , to W. Magelssen ,Bagdad , dated January ٢٤،١٩٠٩ , enclosures No. ١ .

** Ibid ,enclosure No.٢.

Abstract

The foreign missionaries and their activities in Iraq

١٩٠٨ – ١٩١٤

Dr. Khaild Hmood Alsaadoon
College of Arts and Science
Al-Sharqa University U.A.E

This paper shows that some European and American evangelical efforts in Iraq churchs were eager to do an during the years under discussion , so they sent their missions there . The main evangelical object of these missions proved at end to be failure , for they have induced only few Iraqis to abandon their old religion . At the other hand , they were successful in their medical and educational activities which were highly appreciated by the natives .It is proved by this paper also that these missions have served directly or indirectly the interests and influences of their states .